الحياة الطيّبة
السنة ٢٠
العدد ٣٤
صيف ٢٠١٦ م
ملف العدد

الحوار الحضاريّ والثقافيّ بين الحضارة الإسلاميّة والحضارة الغربيّة

الدكتور محمّد بنتاجة[1]

خلاصة المقالة:

تهدف هذه المقالة إلى التأكيد على وجود روابط وصلات بين كلا الحضارتين الإسلاميّة والغربيّة. وهي تجادل في كون هذه الصلات الوطيدة ستصير سدًى ما لم يتمّ توطيدها؛ كما جرى في تجارب التاريخ بعد تجاوز أخطائه، وتفادي عيوبه، والعمل على حلّ المشكلات الواقعيّة التي تعكّر صفو العلاقة بين الحضارتين.

لقد شكّل الدين قديمًا صلة وصل بين الحضارتين من خلال علاقة تبادليّة وتفاعليّة متعدّدة، شملت كلّ ميادين المعرفة والثقافة والفنّ والعمارة ...؛ ولكن بعد مرحلة العلمنة الشاملة التي مرّت بها الحضارة الغربيّة لم يعد ممكنًا لهذا العامل أن يقوم بدوره في ربط الجسور مرّة ثانية، بينما في المقابل تتنامى الدعوات المحرّضة على العنصريّة والحرب والاستعلاء والاستبداد، ما يجعل الحياة الكونيّة ترجع القهقرى في يوم تمّ فيه تغييب الدين لصالح مكاسب شخصيّة ومصالح ضيّقة، فذهب بالعالم إلى تجارب مأساويّة من الحروب وسفك للدماء البريئة.

والحلّ يكمن في استرجاع الإنسان من خلال الدين؛ لأنّ وجوده يتحدّد من خلاله، وبخاصّة لدى الطرف الآخر (الحضارة الغربية)؛ حيث بدايات انهيار إنسانيّ نتيجة التنحية التامّة للدين في تأطير حياة المواطن الغربي. وليس الغرض هو إحياء الصراع

(1) باحث في الفكر الإسلامي، من المغرب.

الديني، ولكنّ الغرض هو إحياء التنافس والدفع الذي تحدثه الأديان بمقاصدها الكلّيّة المبنيّة على السلام وخدمة الإنسان بتنمية الذات.

إنّ احتكاك الحضارة الغربيّة بالحضارة الإسلاميّة والشرع الإسلاميّ يساعدها في استرجاع إنسانيّتها وربط جسور التكامل بين صرحها المادّيّ وكينونتها الإنسانيّة المتحيّزة بعد أن فصلهما الجمود على المعرفة الإمبريقيّة وتاريخ مؤسِف دمويّ بين رجالات العلم وأحبار الكنيسة. وستستفيد الحضارة الإسلاميّة المؤمنة بالمقابل، بالمزيد من فائض المعرفة المادّيّة التي طوّرها العقل الغربي في القرنين الأخيرين وحصل له بها تفوّق وفتح علميّ عظيم. إنّه التكامل من أجل البقاء والرخاء والتفاهم، وليس بغية التصارع والتضارب والتناجز.

مصطلحات مفتاحيّة:

المشترك، الحوار، السلام، التعارف، التقريب، الدفع، السعادة، التواصل، الحضارة، الصراع.

مقدّمة:

إنّ بناء الحضارة الإنسانيّة على العيش المشترك، أمر لا يقبل الجدال، وليست الحضارة الغربيّة -التي نعيش اليوم في ظلّ خدماتها المادّيّة الهائلة، كما نعيش في ظلّ أزماتها المتعاظمة-إلّا نتاج التعاون بين جميع النّاس على اختلاف أديانهم، وفلسفاتهم، وأفكارهم، وأنظمتهم، وهي نتاج التكامل بين الأجيال البشريّة المتعاقبة عمومًا، وبين الحضارة الإسلاميّة الاستثنائيّة على الخصوص.

وقد أنتج العيش المشترك بين بني الإنسان حضارة مادّيّة متطوّرة، لكنّه لم ينتج حتّى الآن تفاهمًا ثقافيًّا اجتماعيًّا وسياسيًّا بين الشرائح الإنسانيّة المتعدّدة. ولطالما كانت الثقافة مرتعًا خصبًا لتلاقح الحضارات والتجارب الإنسانيّة المختلفة.

وتنطلق هذه النظرة الكونيّة من واقع التعارف القرآني الذي دعا الله -تعالى- الإنسانَ إليه؛ باعتباره مخلوقًا اجتماعيًّا يأنس بالآخرين ويأنسون به. ولكنّ أجواء هذا التعارف الثقافيّ الكوني لم تكن دائمًا بمعزل عن المنغّصات والمشاكل.

لقد أرّق سؤال الثقافة المفكّرين والباحثين كثيرًا. وكيف يمكن تحقيق نوع من التجانس بين الثقافات المختلفة من منظور ما، يضمن تعدّدية وتنوّعًا في المضمون الثقافيّ للحضارات المختلفة، مع الإبقاء على صبغة التعارف الذي بثّه الله -تعالى- في الناس، والذي يقتضي التعاون على المشتركات، ونبذ الخلافات، وتذويب نفسيّة المقاتل؟

هذا الواقع الإيماني لم يكن دائم التحقّق، حيث عجزت الثقافات نفسها عن استيعاب التنوّع والتعدّد وصنعت لنفسها دروعًا للقتال ونبذ الآخر في سياق من التحيّز السلبيّ والتمركز حول الذات، في إطار من الأنا المفرط.

ولا يخدم هذا النمط من التفكير والسلوك-في حقيقته-المجتمع الإنسانيّ الكونيّ، بل يخدم ثقافة الكراهية، ويبثّ في عالم الله الرحمن الرحيم بذور العنف والإقصاء، والحقد باسم الدّين والثقافة الحقّة التي لا تقبل جدلًا ولا مراجعة.

والواقع إنّ ثقافة الإنسان الفرد أو المجتمع، ما هي إلّا نتاج تراكم من التجارب المختلفة، والاجتهادات البشريّة التي تصيب وتخطئ، والتي لا تشكّل أصلًا يمكن الاعتماد عليه والاقتداء به في بلورة الأنموذج المثاليّ للعلاقات بين ثقافات العالم.

كما ينبغي أن لا ننسى أنّ الاغترار بالذات وثقافتها ومكوّناتها الحضاريّة تدخلنا في نمطيّة وفردانيّة غالية دفعت بعض الكتّاب والمفكّرين، وبخاصّة في المجال الثقافيّ الغربيّ، إلى إظهار أنماط من السلوك العدوانيّ تجاه الثقافات الأخرى، كما هو الحال عند هنتنغتون مروّج كذبة

«صراع الحضارات والثقافات» أو لدى فوكوياما في أطروحته العدميّة حول «نهاية التاريخ»، أو لدى التيّارات الفكريّة والأيديولوجيّة المتطرّفة؛ كالنازيّة والفاشيّة التي قتلت الإنسان وخرّبت العالم وأظهرت - بسبب عدميّتها الغالية في المادّيّة وإنكار القيم الإنسانيّة والمشتركات الثقافيّة بين الناس - سلوكات معاديةً للإنسانيّة، بل ومعاديةً للمادّة نفسها؛ لأنّها تدفع بهذه الأخيرة إلى أبعد مداها، مستخدمةً إيّاها في غير محلّها الذي عيّنه الله -تعالى- لها؛ ما أدّى بها في نهاية الأمر إلى كره الناس لها وتخلّيهم عن شعاراتها الخادعة، وانتهى بها الأمر إلى ذكريات التاريخ.

والإنسان الحديث هو نتاج الإنسان القديم؛ مهما اختلفت وجهات نظره في العالم والكون والإله والعبادة... لكنّها فروقات تبتني على أصول ثقافيّة مشتركة، ويكمن فيها العمل الجادّ في السعي نحو توحيد كلّ الجهود والتعاون على جمعها على كلمة سواء في تحقيق الأهداف المشتركة.

ولعلّ تحدّيات العولمة ونمطيّتها الثقافيّة الغربيّة تحول دون قدرة أيّ ثقافة على مواجهتها بمفردها. وهنا، يتأكّد دور التعارف الثقافيّ في خدمة مشروع التنوّع والحفاظ على الخصوصيّة الثقافيّة التي تميّزنا عن بعضنا، وتضمن للموروث الإنسانيّ الخاصّ بكلّ منّا أن يبقى مستمرًّا مع مرور الزمن والحقب والأقوام.

أوّلًا: المشترك الثقافيّ والمكوّن الدّينيّ:

لقد أنتجت التغيّرات الحضاريّة في زمننا المعاصر تلكم التحوّلات العميقة في منظومة الوعي والسلوك الإنساني الغربي (المسيحي-اليهودي...) من النظر الاستعلائيّ إلى الرؤية المتواضعة الباحثة عن خصوصيّات المنافسة العربيّة (الإسلاميّة)، من منطلق أنّ هذه الأخيرة لم تزل تتوافر على عنصر من عناصر الجذب والإثارة لآليّات القوّة الفكريّة والحضاريّة؛ وهو الديانة الإسلاميّة.

ويصعب علينا في دراستنا للمشترك الثقافي بين الحضارة العربيّة (الإسلاميّة) والحضارة الغربيّة (المسيحيّة) إغفال المكوّن الدّينيّ؛ بوصفه رافدًا أساسيًّا يجمع ويلائم بين هاتين الحضارتين العظميين.

يقول ويل وإيريل ديورانت: «حتّى المؤرّخ الشاكّ يبدي احترامًا متواضعاً للدّين؛ لأنّه يراه مؤدّيًا وظيفته، ولا غنى عنه على ما يظهر في كلّ مصر وعصر. فقد أَنزلَ الدّينُ على التقيّ والمعذّب والمحروم والمسنّ ألوانًا من السلوى الخارقة التي تعدّها ملايين النفوس أثمن من أيّ عون طبيعيّ... وجعل لأدنى أنواع الوجود معنًى وكرامةً، وسعى من خلال القرابين إلى الاستقرار عن طريق تحويل المواثيق البشريّة إلى علاقات مقدّسة بالله»[1].

فهذا الاستقرار والإحساس بالكرامة الإنسانيّة هو الدافع النفسيّ الذي يعطي لهذا الإنسان الإحساس بضرورة خلق جوّ من الحماية لحياته الآمنة المستقرّة، ولطالما شهدت الحياة البشريّة على هذه البسيطة ممارسات ملوِّثة لهذا المناخ الآمن، عن طريق إشعال الحروب والمعارك الطاحنة، بإشراقات قدسيّة تُضفى عليها باسم الإرادة الإلهيّة (الحروب الصليبيّة- مثلًا-، والمجازر الإمبرياليّة ضدّ شعوب القارّة الأمريكيّة، ...)[2]. وهذا في الواقع وصف تاريخي مرّت به مجمل الحضارات والثقافات الأرضيّة، وبخاصّة تلك التي تزعم أنّها ذات بعد سماويٍّ متعالٍ جعل منها اتّفاقات أو أديانًا كونيّة عالميّة. لكنّ هذا الوصف لم يصر في زمننا المعاصر وصفًا جوهريًّا في أنساق هذه الأديان الكونيّة؛ فقد فطنت التيّارات الدّينيّة إلى ضرورة خلق مقاربات ذاتيّة ذات بعد تسامحيّ وانفتاحيّ تشكّل فيه

(1) ديورانت، ويل؛ ديورانت، أرييل: دروس التاريخ، ترجمة وتقديم: علي شلش، ط1، الكويت، دار سعاد الصباح، 1993م، ص89.

(2) انظر على سبيل المثال لا الحصر المراجع الآتية: إليبري، هيلين: الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، ط1، دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر، 2005م، ص69-109؛ الصوري، وليام: الحروب الصليبيّة، ترجمة وتقديم: حسن جبشي، لا.ط، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1955م، ج2، ص110؛ العروسي، محمّد: الحروب الصليبيّة في المشرق والمغرب، ط1، تونس، دار الكتب الشرقيّة، 1374هـ.ق/1974م، ص27.

التحوّلات العالميّة وتبدّل المواقع الحضاريّة قرارًا أساسًا في بلورته، وقد بدأت الأديان «تكفّ عن توجيه الثقافات المرتبطة بها؛ فالعالم كلّه يواجه المشكلات نفسها، لكنّ المناطق الثقافيّة المرتبطة بالمسيحيّة والإسلام مشتركة معًا في تراث مادّيّ حديث يربطهما معًا، وليس هذا فحسب، بل إنّ المسيحية والإسلام هما ورثة الثقافات المتمازجة للإمبراطوريّة الرومانيّة؛ فعلى الرغم من أنّ اليهوديّة تشكّل عنصرًا في الثقافة المسيحيّة، إلّا أنّ هذا العنصر أقرب ما يكون إلى الثقافة الشرقيّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة، بينما استعارت الثقافة الإسلاميّة كثيرًا من المنطق اليوناني والميتافيزيقا...

وبتوالي القرون أصبحت ثقافات الدولة المسيحيّة ودار الإسلام قد تجانست-إلى حدّ ما-بحكم وجود أصل مشترك لهما...»[1].

يقول أ.ل.رانيلا: «وقد كان للمنطق اليونانيّ والميتافيزيقا اليونانيّة دورٌ جوهريٌّ في بلورة علم اللّاهوت الإسلاميّ الكلاسيكيّ (علم الكلام القديم)، ساهمت فيه عمليّة الانفتاح الثقافي الهائل الذي ابتدأه العبّاسيّون أوّلًا في عهد البرامكة، ليبلغ أوجه في عهد المأمون العبّاسي الذي أنشأ دار الحكمة؛ وهو مجمع علميّ ثقافيّ عظيم أنشئ من أجل العمل على تقريب علوم الأوائل من مصادر الفكر الغربي اليونانيّة واللاتينيّة، وبخاصّة أنّ المكوّن اللاتيني يحتلّ موقعًا خاصًّا بالنسبة إلى أوروبا الغربيّة والعالم المسيحيّ وبقايا الإمبراطوريّة الرومانيّة، مع ذلك العدد الهائل من الأمكنة والتواريخ والاختلافات والمتغيّرات والقوى والمداخلات التي تتضمّنها هذه الكلمات. هذا بالإضافة إلى ما تبقّى من روما الوثنيّة...»[2].

ولقد حفظ المسلمون للغرب تراثهم الثقافيّ، وبخاصّة الدّينيّ منه،

(1) وات، مونتجمري: الإسلام والمسيحيّة في العالم المعاصر، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، لا.ط، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1998م، ص215-216.

(2) رانيلا، أ.ل: «الماضي المشترك بين الغرب والعرب»، سلسلة عالم المعرفة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 241، كانون الثاني1420هـ.ق/ 1999م، ص10.

في أصوله ومصادره الأولى، بل أضافوا إليه من الإبداعات والاكتشافات في شتّى ميادين العلوم والصناعات والعلوم الإنسانيّة، التي ما زلنا في مجتمعاتنا الحديثة عالة عليها ونستفيد من تجاربها. كما قام المسلمون بعمليّة ترجمة كبيرة جدًّا للنصوص القديمة، دون أن يفيدوا منها علمًا ينفعهم في ممارستهم الدنيويّة أو الدّينية؛ فقد تمّ إعمال قواعد المنطق اليونانيّ في كلّ جوانب الحياة الإسلاميّة؛ ابتداءً بالآليّات الإسلاميّة، ومرورًا بعلوم الشريعة الليتورجيّة[1]، وعلم الفقه وأصوله، وانتهاء بالمجالات العلميّة العلمانيّة؛ كالميكانيكا، وعلوم الآلة؛ كالعربيّة، والفلك، والحساب، والرياضيّات.

وأمّا في زمننا المعاصر، فحضور المشترك الإنسانيّ بات يعرف نوعًا من الخفوت؛ نظرًا لطبيعة الثقافة العلمانيّة المادّيّة السائدة في العالم اليوم، وبخاصّة في العالم الغربيّ، المهيمن ثقافيًّا وحضاريًّا على الأرض؛ فالغرب بمادّيّته العنصريّة-وفي نصيب مهمّ منها-المناهضة لأشكال التقارب الدّيني أيًّا كانت، باتت تعزل النطاقات الدّينيّة (مسيحيّة كانت أم إسلاميّة...) في سياق تصارعيّ على مناطق النفوذ اللادينيّة؛ الشيء الذي هيّأ لكلّ دين مجموعة دفاعات عقليّة قويّة ضدّ الدّين الآخر. وقد أدّت هذه العلاقات المركّبة التي تحتوي في طيّاتها الألفة والعداء والتآلف والصراع، إلى أن أصبح الحوار بين المسيحيّة والإسلام مسألة لها ضرورة خاصّة وإلحاح لا فكاك عنه. والشيء المذهل بوجه خاصّ-كما يقول ديترسانغاس-هو «أنّه لا توجد فروق وانشقاقات بين الإسلام من ناحية والغرب من ناحية أخرى، ولن تكون؛ لسبب بسيط هو أنّ الإسلام كذاتيّة واحدة متجانسة، لا وجود له إلّا في خيال الأمّة الإسلاميّة وليس في الواقع السياسيّ، وأنّ الإسلام كاسم مفرد هو مفترض ذهنيّ، وأنّ الأصوب والأدقّ-كما يقرّ

(1) الليتورجيا: مصطلح لاهوتي مسيحي يعني الطقوس العمليّة الدينيّة.

بذلك عنوان صدر أخيرًا-أن نتحدّث عن (عوالم إسلاميّة)»[1].

وهذا الموقف يمكن أن يكون صحيحًا، إذا كانت هذه العوالم لا ينظم بينها خيط ناظم، كما هو الحال في المسيحيّة -مثلًا-، حيث الاختلاف في جوهر الدّين وأساسيّاته؛ لكنّ في الحالة الإسلاميّة ثمّة ثوابت مشتركة بين ما سمّي بـ«العوالم الإسلاميّة»؛ وهي التي يراهن عليها المكوّن الإسلامي في تحقيق مشروعه على أرض الواقع، وهو ما يغضب الغرب، ويشعره بالتهديد، ويدفعه نحو إسلاموفوبيا متوهّمة.

إنّ عدم تفعيل المشروع الإسلامي زاد -أيضًا- من حدّة هذه الصراعات بين الإسلام والغرب، وأغفلَت المشتركات الحضاريّة والثقافيّة؛ لأنّ غياب الأنموذج الأنطولوجي للمشروع الإسلاميّ، يدفع الغرب إلى توهّم حركات عدائيّة تجاهه، وهذا موقف طبيعي؛ إذ القويّ يخاف دائمًا من ذلكم المجهول ويتوقّع منه الأسوأ؛ دفاعًا عن مكتسباته ومصالحه، وهذا في الواقع ليس في صالح العلاقات الإسلاميّة الغربيّة، في حين يؤكّد الإسلام على رسالته الدعويّة العامرة بالخير للناس. فكلّ فوبيا ما هي إلّا تشويه للإسلام وصدّ للناس عن سبيل الله تعالى. والواقع أنّ الأديان مطالَبة بمحاربة كلّ أشكال التوسّع النفوذيّ وتذويب نفسيّة المقاتل تجاه الأديان الأخرى؛ لأنّها مع اشتراكها في المصادر والأصول الثقافيّة-كما بيّنا-هي تشترك-أيضًا-في طبيعة التحدّيات التي باتت تهدّدها، ليس باعتبارها مكوّنًا انتقائيًّا وإنمائيًّا، بل باعتبارها وحدة شاملة يجب ملؤها من الجذور. ويُراد بهذه التحدّيات جرثومة الإلحاد والعلمنة الشاملة المهدّدة للأديان وللممارسات الدّينية؛ فالعلمنة -حسب القسّ الألماني جوتفرايد كونزلن-«ليست فقط وصفًا لاضمحلال الأهمّيّة الثقافيّة للدّين التاريخيّ وصورته المُمَأْسسة، بل تعني -أيضًا- خلق وسائل جديدة لعمليّات فهم الوجود وقوى الإيمان ذات التوجّه الدنيويّ. وتتمثّل قوى الإيمان العلمانيّة الدّينيّة-حسب رأيي-في الثالوث التالي:

(1) سانغاس، ديتر: الصدام داخل الحضارات -التفاهم بشأن الصراعات الثقافيّة-، ترجمة: شوقي جلال، ط1، أبو ظبي، دار العين للنشر، 1429هـ.ق/ 2008م، ص164.

- التاريخ؛ بوصفه تاريخاً علمانياً للخلاص (ويمكن القول -أيضًا- تاريخ؛ بوصفه نقطة جذب للمصير).
- مسيحانيّة (إيمان بمجيء المسيح المنتظر) سياسة (أو دين الثورة).
- العلم؛ كقوّة علمانيّة للإيمان»[1].

لقد أدّى انتصار التاريخ العلماني -حسب تعبير كونزلن- للدّين إلى تطوّر العصر الحديث؛ وهو -الآن- في أزمة حقيقيّة؛ فقد أصبحت القناعات العقليّة الأساسيّة أمورًا تفتقر إلى اليقين، وغدت الحداثة العلمانيّة غير واثقة من نفسها، وأصبح معبد العلم عتيقًا، وهكذا فقدت الآمال العلمانيّة بالفداء والخلاص قوّتها الثقافيّة. ولا يقتصر معنى ذلك على حدوث أزمة في التراث الدّينيّ للعالم الغربيّ؛ أي المسيحيّة، بل أيضًا حدوث أزمة في الثقافة العلمانيّة للحداثة. ولم ينحصر الأمر في إصابة المسيحيّة وباقي الأديان بالإنهاك، بل أصيب العصر الحديث كلّه بالإعياء أيضًا، وباتت رؤى متشائمة من روّاد ما بعد الحداثة والعدميّين؛ كنيتشه في رؤيته النافذة لثقافة «آخر بني البشر» رؤية صحيحة وواقعيّة؛ «فمن أزوالد شبنغلر في كتابه «انحطاط الحضارة»، إلى أرلوند توينبي في كتابه «دراسة للتاريخ»، إلى بكريم يوروكين في كتابه «الدّيناميّات الاجتماعيّة والثقافيّة وأزمة العصر»، باتت حضارة الغرب العلمانيّة الإنسانيّة السائدة، بالرغم من ثرائها المادّيّ وجبروتها العسكريّ، تعاني آلام مبرحة، إذ فقدت القوى التي أدّت إلى سيطرة هذه الحضارة، وقدرتَها على الاستقطاب، وها هي قوى التفكّك والاضمحلال تتجاوز قوى التعاضد والتماسك، والمراسي التي ثبّتت السفينة آخذة في التداعي، والقيم التي جمعت النّاس معًا تعاني من الاضطراب، ولم تعد العلل مقصورة على قطاع واحد أو عدد قليل من القطاعات، بل أصبح نهر الحياة برمّته ملوّثًا»[2].

(1) كونزلن، جوتفرايد: مأزق المسيحيّة والعلمانيّة في أوروبا، تقديم وتعليق: محمّد عمارة، لا.ط، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر، 1999م، ص30.

(2) أحمد، خورشيد: «الإنسان ومستقبل الحضارة من منظور إسلامي»، كتاب «المؤتمر التاسع: الإنسان ومستقبل الحضارة: وجهة نظر إسلاميّة»، الأردن، مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، 1944م، ص615.

لذلك، فإنّ الحلّ يكمن في دورة الإنسانيّة المعاصرة إلى رياض الإيمان والتسليم لله ربّ السموات والأرض والملكوت. وهذا الهدف السامي يتطلّب منّا، نحن معاشر أتباع الأديان السماويّة منها والوضعيّة، محاولة إيجاد صيغ ثابتة وواضحة تعصمنا من الزلل، وتحول دون إحياء صفحات سُوَد من الماضي؛ وكما قال روجيه جارودي: «إنّ الأمر ليس اصطناعًا طوباويًّا لا أساس له من الواقع، بل أمر وعي ما تصبو إليه آلاف المجتمعات المتشاركة والطوائف على اختلاف أنماطها المتنوّعة؛ وهي تسعى كلّ منها لمصلحتها إلى أن تغيّر الحياة. إنّ الأمر هو أن نعرّف القاسم المشترك بين تطلّعاتها، وأن نفتح آفاق إمكانات جديدة. إنّ ما نراه الآن يولد وينمو ليمنحنا سلفًا الثقة والجرأة على تصوّرات وعلى تحقيق عالم آخر، ونموّ إنسانيّ الوجه»[1].

ثانيًا: المشترك الإنسانيّ رافعة الحوار والتواصل بين الحضارات:

لم يعد حوار الحضارات من نوافل القول، بل صار مصيرًا يحثّ الإنسانيّة على تدعيم أركانه أمام تنامي التحدّيات التي تعيق استمراره، وبخاصّة أنّنا نعيش عالمًا صراعيًّا بامتياز؛ وهو آخذ بتلابيب الحضارات المعاصرة نحو المجهول.

إنّ الحضارات وُجِدت لتتحاور، لا لتتصارع، كما علّمتنا سنن التاريخ. فالتلاقح الحضاريّ المستمرّ بين الحضارات سرّ الارتقاء الحضاريّ للمجتمعات البشريّة حتّى اليوم؛ لأنّ في التلاقح اختصارًا لقرون من الزمان التاريخيّ الثمين، واختصارًا للجهد المادّيّ والبشريّ. ومن هنا، يغدو الكلام عن المعيقات في سياق التصميم على الحوار، ودرءًا للتجريبيّة في الحوار والتواصل الحضاريّ.

(1) جارودي، روجيه: حوار الحضارات، تعريب: عادل العوّا، لا.ط، لبنان، عويدات للنشر والطباعة، لا.ت، ص10.

ولا شكّ أنّ الحضارة الإسلاميّة ومع ما راكمته في مسيرتها التاريخيّة، وخبرتها في التعامل، واستيعابها مختلف التيّارات والثقافات والرؤى الكونيّة المختلفة، قادرة على إبداع أشكال من محرّكات الدفع الحضاريّة للحوار وبلورتها في مشروع إسلاميّ كونيّ يضمن تحقيق مقصد الله في التعارف الإيجابيّ، مع مراعاة الظروف وأحوال الواقع التي لا تصبّ عمومًا في صالحها. ويمكن اختصار محرّكات الدفع في الحوار بين حضارة المسلمين وحضارة الغرب الحديث في ثلاثة عوامل: عوامل دفع مشتركة إنسانيًّا، عوامل دفع إسلاميّة، وعوامل دفع غربيّة.

1. بعض عوامل الدفع العابرة للحضارات:

لقد نصّت الشريعة الإسلاميّة بالاستقراء التامّ لمجمل نصوصها على أنّ معاش المسلم يتلخّص في المقاصد الضروريّة التي تجمعه؛ بوصفه إنسانًا وسط الجماعة البشريّة المتحضّرة. والمجتمع الإنسانيّ العالميّ اليوم يطمح لتحقيق ثلاث ضروريّات كبرى: حفظ البقاء، وتحقيق الرخاء، وتحقيق الهناء (البقاء البيولوجي، والرخاء المادّي، والهناء الروحي)؛ وهي باختصار الجيل الثالث لحقوق الإنسان في المنظومة الحقوقيّة العالميّة بشعاراته الثلاثة: (سلامة البيئة، والسلام الدولي، والتنمية المستدامة)[1].

أ. السلام من أجل البقاء:

إنّ حاجتنا إلى السلام والحوار هي حاجة للبقاء. وتأكيدنا على حقّ البقاء يأتي من الشعور بالخوف من الحاضر والمستقبل. ونحن نقف مكتوفي الأيدي وعازمين على تغيير واقع مأساويّ لا يتنامى فيه إلّا الرغبة في الهيمنة وتكديس الأسلحة الفتّاكة التي تدمّر الإنسان والطبيعة وتحّول العالم إلى جحيم.

(1) انظر: المفتي، أحمد: «الأديان والنظام العالمي لحقوق الإنسان»، مجلّة العدل، تصدر عن وزارة العدل بالمملكة العربيّة السعوديّة، السنة الثامنة، العدد 8، ص111.

ب. السلام من أجل الرخاء:

الرخاء المادّي هو شعور إنسانيّ فرضته حالة الفقر والجوع والأمّيّة والمرض والموَتان المتفشيّة في وسط أربعة أخماس سكان العالم، بفعل التوزيع غير العادل للثروة على الصعيد الدوليّ، (إذ يمتلك 20% من سكان العالم 80% من الثروة العالميّة)[1]. وهذا الشعور الإنسانيّ حاضر في كلّ البيئات الحضاريّة شرقًا وغربًا، وتقويته ممكنة عبر الحوار والسلام الذي تحتاجه البشريّة لتسخير مقدّرات الطبيعة والحضارة البشريّة لتحقيق العيش الكريم.

ج. السلام من أجل السعادة:

حقّقت الحضارة الغربيّة الحاجات المادّيّة لمجتمعاتها بإفراط، ولكنّها عمّمت مجاعة روحيّة مرعبة بإفراط أيضًا، كانت نتيجتها انعدام الأمن الروحيّ لساكنيها، فكانت ثمرتها المرّة اليأس المفضي إلى الشقاء، ومظاهرها التعامل بكثرة للانتحار، وتناول المخدّرات، وتفشيّ الجريمة في الغرب[2]. وهذا أمر يفرض حوارًا ينتهي بتبادل المنتجات الروحيّة العالية القيِّمة بين الحضارات، ويمكن للإسلام في هذا الباب أن يكون عونًا للحضارة الغربيّة في تجاوز أزمتها الروحيّة الخانقة.

2.بعض عوامل الدفع الإسلاميّة:

بنى الإسلام صرحه الحضاريّ، انطلاقًا من نظرة واقعية إلى الوجود والإنسان، والعلاقة التفاعليّة بينهما. فهو دين يراعي حالة الروح في علاقتها بالواقع المحسوس. والشريعة الإسلاميّة، بحكم طبيعتها الانفتاحيّة، أنتجت أحكامها التشريعيّة على الدفع بحوار الحضارات،

(1) انظر: بيتر مارتين، هانس؛ شومان، هارالد: فخّ العولمة –الاعتداء على الديموقراطيّة والرفاهيّة–، سلسلة عالم المعرفة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 238، تشرين الأوّل 1419هـ.ق/ 1998م، ص25.

(2) انظر: ولسون، كولن: سقوط الحضارة، ترجمة وتحقيق: أنيس حسن، ط1، بيروت، دار الآداب، 1971م، ص35.

والحؤول دون وجود منطق الصراع؛ أي الاعتراف بالتعدّد والاختلاف في إطار من التفاهم والإيجابيّة.

أ. الوجود مبنيّ على التدافع وليس الصراع:

لقد جاء القرآن الكريم صريحًا في توجيه التصوّر البشريّ لنفسه وللآخرين وللوجود والعالم نحو عمليّة تواصليّة تكوينيّة لا مفرّ منها. فهي تعبير عن كينونة الوجود الإنسانيّة وعلامة على حيويّته، من خلال حركيّة الأنا والآخر، في إطار علاقة إنسانيّة رحمانيّة قائمة على أساس من التوازن والعدل والنور لا بغي فيه ولا طغيان. قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]، وقال -تعالى أيضًا-: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[2]. وفي كلتا الآيتين الكريمتين يرد مفهوم «الدفع» في وصف العلاقة التنافسيّة التسابقيّة بين الناس في الدنيا.

ويؤكّد القرآن الكريم على أنّها تدافعيّة وليست شيئًا آخر (صراعيّة؛ كما لدى الغرب المادّيّ، ومحبّة؛ كما في المسيحيّة، واستغفاليّة؛ كما في اليهوديّة). وهنا نقف أمام إعجاز تاريخيّ حضاريّ يعلنه القرآن منذ نزوله إلى بني البشر محمّلًا بإحاطة كبيرة بطبيعة الوجود الثقيل على الإنسان وبرؤية إصلاحيّة تجاهه. ومفهوم الدفع القرآني يعني «يَدْفَعُ اللهُ بِمَنْ يُصَلِّي عَمَّنْ لَا يُصَلِّي، وَبِمَنْ يَحُجُّ، عَمَّنْ لَا يَحُجُّ وَبِمَنْ يُزَكِّي عَمَّنْ لَا يُزَكِّي»[3]؛ أي يدفع الله عن المقصّر العقاب والعذاب بعمل الصالحين وقرُباتهم. وبهذا التفسير نلحظ حضور الإيمان والعمل الصالح في حياة الإنسان المسلم؛ لأنّ

(1) سورة البقرة، الآية 251.

(2) سورة الحجّ، الآية 40.

(3) الحنظلي الرازي، أبو محمّد عبد الرحمن (المشهور بابن أبي حاتم): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمّد الطيّب، ط3، المملكة العربيّة السعوديّة، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1419هـ.ق، ج2، ص480.

فيهما دفع بلاء الله عن الآخرين. وهذا هو كنه المعنى الإنسانيّ للإنسانيّة، وفيه يتجلّى روح الإنسان المسلم الذي يتعدّاه خيره ليصيب الآخرين والمجتمع بأسره. فهو دفع نحو الخير في تعميمه على الناس. وفي معنى ثانٍ «وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ... لَوْلا الْقِتَالُ وَالْجِهَادُ»[1]. ومعناه دفع الله المسيء بالمحسن، والفاجر بالبَّر، والظالم بمن هو أقوى منه؛ وهي سنة كونيّة من سنن الله -تعالى- في الوجود؛ كما في توعّد الله بني إسرائيل إذا طغوا وعلوا أن يرسل عليهم عبادًا له أولي بأس شديد. ولذلك كان هذا الدفع وسيلة من وسائل إحلال السلام بين الناس، فيتدافعون لردّ ظلم بعضهم ببعضهم الآخر. قال الراغب الأصفهاني في كلام حكيم له على آية سورة البقرة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾: «تنبيه على فضيلة المـُلك، وأنّه لولاه لما استتبّ أمر العالم، ولهذا قيل الدين والمـُلك مقترنان، وتوأمان لا يفترقان، ففي ارتفاع أحدهما ارتفاع الآخر؛ لأنّ الدين أسّ، والمـُلك حارس، وما لا أسّ له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ﴾ الآية. إنْ قيل: على أيّ وجه دفع الله الناس ببعضهم؟ قيل: على وجهين أحدهما: دفع ظاهر، والثاني دفع خفي، قال: فالظاهر، ما كان بالسُّوَّاس الأربعة الذين هم: الأنبياء، والملوك، والحكماء والوعّاظ؛ فسلطان الأنبياء على الكافّة خاصِّهم، وعامّهم، وظاهرهم، وباطنهم، وسلطان الملوك على ظواهر الكافّة دون الباطن، وسلطان الحكماء على الخاصّة دون العامّة، وسلطان الوعّاظ على بواطن العوامّ. وأمّا الدفع الخفيّ، فسلطان العقل؛ فالعقل يدفع عن كثير من المقابح، وهو السبب في التزام حكم السلطان الظاهر، وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾»[2].

وكلامه -رحمه الله- وجيه؛ لأنّ الدفع رهين بالقوّة، والقتال والجهاد هو من المهامّ السلطانيّة التي شرّعها الله للسلطان وحده لضمان

(1) الحنظلي الرازي، تفسير القرآن العظيم، م.س، ص481.

(2) بسيوني، محمّد عبد العزيز: منهج الراغب الأصفهاني في التفسير مع تحقيق مقدّمته وتفسيره لسورتي الفاتحة والبقرة، ط1، مصر، كلّيّة الآداب -جامعة طنطا، 1420هـ.ق/ 1999م، ج1، ص514.

الأمن والسلام والاستقرار، وهو مرحلة متأخّرة من مراحل الدفع، حتّى تستكمل المرحلة الإنسانيّة الدفعيّة؛ فحينما لا تأتي أُكُلَها تحضر. ويزكّي هذا المعنى ورود الدفع على رواية ورش عن نافع؛ بمعنى «الدفاع»؛ وهو الحماية؛ سواء أكان دفاعًا عن النفس أو عن المستضعفين أو عن المعاني الكلّيّة الكونيّة السامية؛ كالحقّ أو الحرّيّة أو الكرامة أو غيرها. وهو بذلك -أيضًا- يقتضي وجود قوّة لتحقيق هذا الدفاع والردّ للظالمين عن غيّهم. لذلك قال نبيّ الله لوط -كما حكاه القرآن-: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1]؛ لأنّ الدعوة الخيريّة تحتاج إلى قوّة خيريّة لتدافع عنها وتحميها من سلطان الشرّ وأهله. والدفاع هو صورة من التدافع بين الدافع والمدفوع، فأيّهما أصلح كان الأغلب، مصداقًا لقوله -تعالى-: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]. فأسس التدافع والدفع والدفاع في الرؤية الإسلاميّة ليست رهينة -بالضرورة- بالقوّة المادّيّة والعدديّة، والعُدديّة لكنّها رهينة بالأساس بصلاح الدافع المدافع وصبره وتقواه. وهي سرّ نصره في النهاية، وقد يخسر بعضًا من المعارك. وهي حكمة عظيمة تفسّر لنا حالات من الغموض في تاريخ البريّة لا يمكن تفسيرها من خلال البراديغم المادّي التاريخي المعمول به.

كما أنّه من الناحية المعرفيّة، التدافع هو ميكانيزم وليس أيديولوجيا؛ بمعنى أنّه لا يدلّ لغويًّا على الكراهية والحقد والعنف؛ كما هو مصطلح «الصراع»، فلا يتصارع إلّا المتخاصمون متبادلو الكراهية. أمّا التدافع فلا يتضمّن هذا المعطى السلبيّ بالضرورة، وإن قبله بشكل عمليّ؛ لأنّ المتدافعَين قد يتدافعان من أجل التنافس دون حضور عامل الكراهية والحقد. وعمليًّا، فكلّ متحاقدَين هما متدافعان، ولكن ليس كلّ متدافعين متحاقدان. والطبيعة الإنسانيّة تتضمّن كلتا الحالتين، غير أنّ مفهوم الصراع الداروينـي يزيل كلّ إمكانيّة للتنافس المسالم الخالي من

(1) سورة هود، الآية 80.
(2) سورة البقرة، الآية 249.

الكراهية، ويبقي على الحقد محرّكًا أساسًا، بل وحيدًا للسلوك الطبيعيّ في الوجود ولحركة التاريخ، سواء لدى الحيوان أم لدى الإنسان.

إنّ الرؤية المعرفيّة السليمة هي شرط أساس في إعادة هيكلة الإنسان المعاصر، وتغيير نظرته إلى الأشياء، في سياق تكامل عالمَي الشهادة المتّسم عادة بالبراجماتيّة والآنيّة (العاجلة) وعالم الغيب الذي يطغى عليه الإيثار وبناء المستقبل (الآجلة). والبراجماتيّة والأنانيّة ليسا معطيَين منتفيَين في الرؤية القرآنيّة، بل هما معتبران، لكن في سياق تكامليّ مع معطى الإيثار والرحمة. قال -تعالى-: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾[1]. فكما حثّ الله -تعالى- على إصلاح المستقبل (الآخرة)، فإنّه -أيضًا- كره التبتّل وإكراه النفس والرهبنة والانقطاع عن الخلق، وحثّ على أخذ النصيب من الدنيا شرط الإحسان فيها. ومن مصاديق ذلك «الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ بِلا سَرَفٍ»[2]؛ أي باعتدال ووسطيّة. وهي إحدى وسائل الدفع النظريّة في الإسلام، حيث تتمّ المزاوجة بوسطيّة واعتدال بين الثنائيّات الصلبة (الدنيا/الآخرة، الجسد/الروح، العلم/العمل، ...)؛ فهي ثنائيّات متكاملة متعاونة متحابّة، وليست متصارعة متباغضة. وهذا الواقع الصراعيّ كان من تبعات الفكر البشريّ الذي أطاح بالحياة الإنسانيّة الغربيّة، ففكّك الأسرة، وأحال الظاهرة الإنسانيّة العميقة في طبيعتها المعقّدة في أنساقها إلى آلة للإنتاج المادّي، وواجهات للإعلانات الاستهلاكيّة، وحالة من الفزع الاجتماعيّ يدفع المرء إلى الطمع بما عند الآخرين، وبأيّ طريقة كانت؛ ما يفتح الباب للمزيد من الحروب والصراعات التي لا تنقضي حتّى يتغيّر مفهومنا للوجود والعالم[3].

(1) سورة القصص، الآية 77.

(2) القرطبي، شمس الدين: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، القاهرة، دار الكتب المصريّة، 1384هـ.ق / 1964م، ج13، ص314.

(3) وقد فكّكت بتوسّع البراديغمات الاجتماعيّة الغربيّة وفلسفاتها على ضوء الرؤية الشموليّة الإسلاميّة في كتابي المنشور الموسوم بـ «النموذج القرآني للأسرة المسلمة في مواجهة التغيّرات القيميّة المعاصرة»، الصادر عن مركز الدراسات الأسريّة والبحث في القيم والقانون، ط1، 2015م.

ب. التعارف ضرورة شرعيّة:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1]، حيث عدّ التعارف من غايات الخلق الإلهيّ للرجال والنساء من بني آدم، وللقبائل داخل الشعب أو الأمّة الواحدة، وللشعوب والأمم. ويُعدّ التعارف أعلى درجات الحوار المتحضّر بين الرجل والمرأة في مجال الأسرة، والقبائل في مجال الدولة، والشعوب في مجال الحضارة.

ويقوم التعارف على تبادل المعرفة والخبرة بين الذكر والأنثى، وبين الأمم والحضارات، لتحقيق البقاء والرخاء والهناء للبشريّة جمعاء. وليس معناه الاجتماع حول طاولة لتبادل الآراء ليس إلّا، وإنّما تبادل النتاجات الحضاريّة ذات القيمة الإنسانيّة، سواء أكان نتاجًا ماديًّا أم نتاجًا معنويًّا. وهو ضرورة شرعيّة؛ لكون أمّة الإسلام أمّة شهادة. قال -تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾[2]، كما قال -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3]. فمثل أمّة الشهادة؛ كمثل الشاهد أمام القاضي، فهو يمتلك علمًا بشيء يريد تبليغه للقاضي لتحقيق العدالة بإنقاذ مظلوم من ظلم ظالم. فأمّة الشهادة وظيفتها تبليغ العلم الإسلاميّ إلى الأمم لإنقاذها من الظلم والضلال الروحي والعوز المادّي. وهذا غير متأتٍّ إلّا بالحوار بين الحضارة الإسلاميّة وكلّ الحضارات الموجودة على الأرض، وعلى رأسها حضارة الغرب. والحوار وتبليغ رسالة الإسلام لن تكون إلّا بالتي هي أحسن؛ كما هي تجربة الإسلام؛ حينما كان المسلمون يقودون العالم

(1) سورة الحجرات، الآية 13.
(2) سورة البقرة، الآية 143.
(3) سورة المائدة، الآية 8.

في العصر الوسيط. فمئات الشعوب اعتنقت الإسلام حبًّا وطوعًا، لا كرهًا أو خوفًا؛ كما يزعم دهاقنة الاستشراق. قال -تعالى-: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[1]، ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]، ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[3].

ثالثًا: التقريب بين الأديان والثقافات والحضارات لا يعني إلغاء الآخر:

لقد ساد العشريّة الأخيرة من القرن الماضي وبداية القرن الحاليّ حضورٌ مكثّفٌ لما يُعرف بـ«التقريب بين الأديان» أو «حوار الأديان والثقافات»، وبات هذا المشروع سمة من سمات المجتمعات الحديثة المتحضّرة. وأهمّ ما ميّز زمن الحوار الدينيّ المعاصر، هو الانخراط الكلّي لكثير من الدول الإسلاميّة، في هذا المشروع، بل صارت من الداعمين المبرّزين لأطروحاته عن الأديان والعلاقات بين المؤمنين، والمواضيع اللاهوتيّة، وإشكاليّاتها النصّيّة، وكيفيّة تجاوز واقع الأزمة الذي يحول دون قدرتها على احتواء الاختلافات، وتدبير المخاطر الناتجة عنها؛ لاهوتيًّا، واجتماعيًّا، وسياسيًّا، واقتصاديًّا...

ولطالما نُودي في أدبيّات المؤتمرات والبحوث المؤسّسة لمشاريع التقريب بين الأديان، وعلى رأسها أعمال المؤتمر الفاتيكانيّ الثاني (1965م) ومؤتمر كولورادو (1978م)، بحرّيّة الاعتقاد واحترام الاختيارات

(1) سورة العنكبوت، الآية 46.
(2) سورة البقرة، الآية 256.
(3) سورة النحل، الآية 125.

الدينيّة للمؤمنين. لكنّ – ومع الأسف– لم يكن لهذه التوصيات ذلكم الأثر في معالجة الإشكاليّات الثيولوجيّة المتبلورة في عمق التاريخ الديني للأديان، والتي صارت بنيويّة فيها. كما لم تستطع إقناع رؤساء الأديان بالتخلّي عن نفسيّة العداء الموروثة في الممارسة التاريخيّة؛ ما يجعل المتتبّع في حالة من الاستغراب والقلق عن جدوى هذه المؤتمرات وواقع هذه الأديان على حاله!

إنّ السلام بين الأديان مقصد أصيل من مقاصد الشريعة الإسلاميّة، وجزء من رؤيتنا الإسلاميّة، وأساس من أسس العقيدة في القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[1]، وقال جلّ ذكره: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[2]، والسلام هو اسم من أسماء الله تعالى، لكنّ السلام الذي يدعو إليه القرآن الكريم، يجب أن لا يتنافى وقواعد الدين وثوابته، وكلّ مشروع إسلامي لا يمتلك من تسميته هذه؛ إلّا بقدر ما يتّسق وثوابت الإسلام التي تميّزه عن باقي الأديان، وتحفظ له خصوصيّته الهدائيّة والربّانيّة التي تستوعب كلّ الاختلافات، وتهيمن عليها تصديقًا وتصحيحًا وإرشادًا.

خاتمة:

إنّ حاجتنا لبناء مشروع إسلاميّ تقاربيّ مع كلّ مكوّنات الحضارة الإنسانيّة المعاصرة ليس سُنَّة مستحبّة أو من قبيل نافلة القول أو الفعل، بل هو واجب شرعي نابع من الحاجة السَّنَنيّة لتطوير الذات حضاريًّا وتنمويًّا، وإرضاءً لله –تعالى– وتحقيقًا لعبوديّته في أمره للمؤمنين بضرورة التعارف

(1) سورة يونس، الآية 25.
(2) سورة المائدة، الآيتان 15–16.

مع الناس. وهذا يقتضي قيام الأسباب والسنن التي لا تقوم هذه الغاية إلّا بها؛ لأنّ ما لا يقوم الواجب إلّا به فهو واجب، وبخاصّة أنّ المجتمعات البشريّة تاريخيًّا وأنثروبوجيًّا لا تخلو من نقاط تلاق ومشتركات كثيرة، قد تكون المدخل نحو عالم أكثر تسامحًا وسلامًا وأمنًا.

إنّ عوامل الدفع الإسلاميّة المتنوّعة تساهم بشكل كبير في الدفع بالمشروع العالميّ نحو الحوار والتقارب والتفاعل الإيجابيّ وإحلاله مكان الصراع والحروب، -وما أحوج عالم اليوم إليها-لأنّها تتوافر على القواعد النظريّة ذات العمق الإلهيّ النهائيّ والمعصوم الذي من خلاله تستوعب كلّ الاختلافات الكامنة في الاختيارات الحضاريّة الأخرى.

وبمعنى آخر، فهي تستوعب الحاجة العقديّة للإسلام والمكانة الرياديّة للمسلمين، ولكنّها لا تدخل في مركزيّة متوحّشة؛ بحيث تُشعر الآخرين بسلطويّة متكبّرة أو بانعزاليّة مفرِّطة. إنّها توازن بين كينونة الإنسان الطينيّة المتواضعة وروحانيّته المتعالية، بين الدنيا الفانية وبين الآخرة الباقية، في سياق من التكامل والتعاون والوسطيّة والاعتدال. وهذا ما يعطيها تلكم القابليّة الكونيّة التي جعلت من الإسلام المثال الأعلى والحلّ الأمثل والأفرد للمشاكل المستعصية للإنسانيّة الحداثيّة المعاصرة.

لكن يبقى الدور على المسلمين في ضرورة ترجمة التشريع العقديّ والعبادي عمليًّا، عن طريق الرفع من قيمة الحضارة الإسلاميّة في شهودها الوقتيّ؛ على مستوى الأفراد، من حيث التربية الحسنة والحرص على القيم السامية والوعي بمتطلّبات التقدّم، وعلى مستوى إعادة هيكل البيت الإسلامي من داخله؛ لأنّ الله يحبّ اليد العليا ويباركها، كما يقرّب المؤمن القويّ. وقد ضمن الله -تعالى- للمسلمين العزّة، فهل عملوا على تحقيقها في دنياهم؟!

إنّ حالة الضعف التي عليها أغلب مجتمعات المسلمين اليوم، قد ضيّعت على أمم الأرض الاستفادة من نور الإسلام والخير الذي أنزل فيه؛

ذلك أنّ الأمم عادة ما تحكم على النظريّة من خلال واقعها العمليّ، ومن خلال حالة شهود أصحابها، وكأنّنا معشر المسلمين صرنا عبئًا ثقيلًا على الإسلام وحاجزًا أمام الآخرين لاستكشافه وتفعيل مقتضياته ومقاصده في حياتهم العلميّة، وتجاوز تبعات الحداثة وما بعد الحداثة.. كلّ ذلك يضاعف الحمل على مسلمي اليوم والمستقبل من أجل رفع هذا الإصر والانفتاح على أمم الأرض بكلّ ندّيّة وعزّة، متسّلحين بكتاب ربّهم وسنّة نبيّهم التي فيها العصمة من كلّ سوء، والسلامة من كلّ شرّ.